مصطلحات الأدب المقارن دراسة بلحاظ المدرستين الأمريكية والفرنسية دراسة موازنة

Comparative literature terminology, a study in the words of the American and French schools, a balancing study

الباحث: زمان شناوة فاهم العرداوي

أ. م .د محمد حسين علي الكربلائي

ملخص البحث :

تأثر الأدب المقارن في نشأته وتطوره بعوامل مختلفة، تعود في مجملها إلى التوجهات الثقافية أو الفكرية السائدة في مرحلة معينة ، فالأدب المقارن كغيره من المجالات المعرفية وفروع الدراسات الأدبية الأخرى ـ كالتاريخ الأدبي، والنقد الأدبي، والنظرية الأدبية، شهدت مفاهيمه ومناهجه وميادينه منذ نشأته في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى يومنا تغيرات جوهرية مما يجعل التعامل السطحي مع هذه التغيرات أو تجاهلها عملا يتنافى مع طبيعة العلوم وما تتطلبه من مواكبة لكل جديد بغض النظر عن موقف الدارسين من هذا الجديد

وانقسمت الدراسة على ثلاث مباحث فكان المبحث الأول عنوان (المدرستين الفرنسية والأمريكية وتاريخ نشوئهما)، أما المبحث الثاني فكان بعنوان (المصطلحات المرتبطة بتسمية الأدب المقارن) وجاء المبحث الثالث بعنوان (المصطلحات الرئيسة في الأدب المقارن) ومن ثم جاءت الخاتمة في نهاية والوقوف على نتائج البحث بما تم التوصل إليه ، ثم الهوامش ومن ثم نهاية البحث المصادر والمراجع التي ذكرنها .

الكلمات المفتاحية : مصطلحات ، ادب ، مقارن ، موازنة

Research Summary:

Comparative literature, in its emergence and development, was influenced by various factors, which generally go back to the prevailing cultural or intellectual trends at a certain stage. Comparative literature, like other fields of knowledge and other branches of literary studies – such as literary history, literary criticism, and literary theory – has witnessed its concepts, methods, and fields since its inception in the middle of the year. The first period, from the nineteenth century until today, has undergone fundamental changes, which makes dealing superficially with these changes or ignoring them an act that is inconsistent with the nature of science and what it requires of keeping up with everything new, regardless of the position of the scholars on this new thing.

The study was divided into three sections. The first section was entitled (The French and American schools and the history of their emergence), while the second section was entitled (Terminology associated with the naming of comparative literature). The third section was entitled (The main terms in comparative literature), and then the conclusion came at the end and a review of the results of the research. What was reached, then footnotes, and then the end of the research, the sources and references that we mentioned

المقدمة

تأثر الأدب المقارن في نشأته وتطوره بعوامل مختلفة، تعود في مجملها إلى التوجهات الثقافية أو الفكرية السائدة في مرحلة معينة ، فالأدب المقارن كغيره من المجالات المعرفية وفروع الدراسات الأدبية الأخرى ـ كالتاريخ الأدبي، والنقد الأدبي، والنظرية الأدبية، شهدت مفاهيمه ومناهجه وميادينه منذ نشأته في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى يومنا تغيرات جوهرية مما يجعل التعامل السطحي مع هذه التغيرات أو تجاهلها عملا يتنافى مع طبيعة العلوم وما تتطلبه من مواكبة لكل جديد بغض النظر عن موقف الدارسين من هذا الجديد [1].

و الأدب المقارن، في أبسط مفاهيمه وتعريفاته، هو((ذلك النوع من الدراسات الأدبية الذي يتمثل جوهره في إجراء مقارنات بين آداب قومية مختلفة، أي بين آداب كُتبت بلغات متعددة))[2]. وقد أوضح كمال أبو ديب أن الأدب المقارن هو ((دراسة الأدب خارج حدود بلد معين واحد، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومجالات المعرفة والمعتقدات الأخرى مثل الفنون والفلسفة ... من جهة أخرى، وباختصار الأدب المقارن هو مقارنة أدب بأدب آخر وبآداب أخرى ومقارنة الأدب مع مجالات أخرى من التعبير الإنساني))[3]

إنّ تجاوز حدود الأدب المكتوب بلغة واحدة هو المسألة الوحيدة التي لا خلاف حولها بين المقارنين على اختلاف اتجاهاتهم ومدارسهم، أمّا المسائل الأخرى فيمكن اعتبارها كلّها خلافية. ولكن حتى حول هذا الحدّ الأدنى فإنّ الاتفاق غير كامل. فمن المقارنين من يريد أن يحصر المقارنة في أدبين قوميين لا غير، وهناك من يريد توسيع دائرة المقارنة لتشمل آداباً قومية متعددة، وهناك أخيراً من يدعو إلى مقارنة الأدب بالفنون الأخرى من موسيقا وتصوير وغيرهما، لا بل إلى مقارنته بميادين المعرفة الإنسانية كلّها كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع[4].

ويرى كلّ المؤلفين العرب الذين كتبوا في الأدب المقارن أنّ هذا العلم هامّ، بل خطير جدّاً. ولكن قلّ أن نجح أحد من هؤلاء في أن يقنع الناس بأهميّة هذا العلم أو خطورته. فالدكتور محمد غنيمي هلال، وهو أبرز أعلام المقارنية العربية، صاحب كتاب لم يحظَ مؤلَّف مقارني آخر بما حظي به من سعة انتشار وتأثير، يعلن في كتابه هذا أنّ الأدب المقارن قد صار ((علماً من علوم الآداب الحديثة، أخطرها شأناً، وأعظمها جدوى)) [5]. كما ينسب الدكتور هلال إلى الأدب المقارن رسالة "خطيرة الشأن"، تجعل من التوسّع في دراسته حاجة ماسّة .

المبحث الأول :

المدرستين الفرنسية والأمريكية وتاريخ نشوئهما

أولاً: المدرسة الفرنسية:

ظهر مصطلح الأدب المقارن في فرنسا على يد آبل فيلمان عام 1828م، وقد تحدد مفهومه في طور النشأة وفقاً لخلفيات ومقتضيات تطلبتها تلك المرحلة كان لها دور في رسم ملامح ما سُمي بالاتجاه الفرنسي في الأدب المقارن، فمما لاشك فيه أن أسس هذا الاتجاه لم تشكلها المصادفة ،وإنما كانت استجابة لنسق ثقافي أستدعى تحديد مجال هذا الفرع الجديد من الدراسات الأدبية بدراسة التأثير المبني على حقائق وعلاقات تاريخية بين أدبين قوميين مختلفين في اللغة[6] .

وقد تزامن ظهور الأدب المقارن مع ظهور النزعة القومية الفرنسية، التي أدت إلى ثورة الفرنسيين على الكتابة باللغات اللاتينية، واتجاههم إلى اللغة الفرنسية، حيث نشأ عصر التنوير في القرن الثامن عشر، على أسس اللغة والثقافة في فرنسا، فقد اتجه االفرنسيون إلى الاهتمام بدراسة اللغات الرومانسية وآدابها، والكشف عن دروها في نهضة الآداب الأوربية الحديثة[7]، في محاولة لإعادة الاعتبار لهذه اللغات التي تمثل أساس اللغات القومية الأوربية الحديثة. وقد أدى الاهتمام برسم ملامح القومية الفرنسية واثبات تفردها إلى ازدهار علم التاريخ في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر في فرنسا، فقد وضع أسس هذا المنهج فرانسوا جيرو وأوجستين فيري، من خلال كتابتهما للتاريخ القومي العام لفرنسا، وبعض الدول الأوروبية، في العقدين الثالث والرابع من القرن الثامن

عشر، وقد أفاد النقاد والأدباء الفرنسيون من هذا المنهج في كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، وقاموا بترسيخ منهج النقد التاريخي، الذي أزدهر على يد سانت بيف، وهيبولت تين، وآخرين [8]حيث نظروا إلى الأدب من خلال عوامل تاريخية: هي الجنس، والزمان، والمكان، فجنسية الأديب أو قوميته تلعب عندهم دوراً في تحديد خصائص الأدب وهذه النظرة إلى أهمية الجنسية ناتجة عن بروز الوعي القومي في فرنسا وغيرها من دول أروبا ، مما أدى الى تطور العلوم التاريخية التي تبحث في أصول الأنواع البشرية، وأنواع المعارف والعلوم الأخرى، ومنها نظرية دارون في النشوء والتطور.

وكان من الطبيعي في ظل التوجهات القومية في اللغة والادب والتاريخ في فرنسا، أن يتجه الأدب المقارن اتجاهاً قوميا تاريخياً، هدفه أن يكشف عن الاسهامات التي يقدمها أدب قومي في تطور أدب قومي آخر، لذا اشترطوا في دراسة التأثير أو التأثر أن تكون العلاقة بين الادبين القوميين مبنية على وقائع ووثائق تاريخية، تثبت انتقال الأدب المؤثر إلى الأدب المتأثر، مما أدى إلى التركيز على وسائط التأثير كالترجمة والرحلات والكتب، وتتبع سيرة الكاتب المؤثر، وسيرة الكاتب المتأثر، وكأن المهمة الأساسية للمقارنة في هذا الاتجاه، تنتهي عند إثبات التأثير بين أدبين قوميين[9] .

وما يقوي فرضية ارتباط الأدب المقارن الفرنسي بالنزعة التاريخية القومية، أنه نشأ في البداية فرعاً من فروع تاريخ الأدب، فقد وجد المؤرخ الأدبي الفرنسي أثناء متابعته لتطور الأدب الفرنسي، أن هنالك جوانب تخرج عن نطاق اهتمامه أو دائرة عمله، تتمثل في خروج الأدب القومي إلى آداب أخرى مؤثراً أو متأثراً وحتى يتم إكمال كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، لابد من تتبع هذه التأثيرات.[10]

ومع التسليم بأن المدرسة الفرنسية التقليدية تنتمي إلي تاريخ الأدب أكثر مما تنتمي إلي الأدب والنقد، إلا أننا نؤكد ثانية أن الأدب المقارن يجب أن يهتم بدراسة النواحيالجمالية والذوقية، إذا ما اقتضي المقام البحث في هذه الأمور.

ثانياً: المدرسة الأمريكية

ومن الاتجاهات النقدية التي تعارضت مواقعها النظرية والتطبيقية تعارضاً شديداً مع الاتجاه التاريخي في الأدب المقارن ذلك الاتجاه النقدي الذي يُعرف بالنقد الجديد . فقد حمل رينيه ويليك، وهو أبرز ممثلي هذا الاتجاه على دراسات التأثير وأسسها الفلسفية والنظرية وتطبيقاتها ودورها، وذلك في محاضرة تاريخية ألقاها عام 1958 في المؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي انعقد في جامعة "تشابل– هيل" الأمريكية. لقد وجّه ويليك إلى دراسات التأثير وإلى المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن نقداً لامثيل له في حدتّه، ونسف أسس تلك المدرسة ومرتكزاتها [11] . فقد أخذ عليها أنها من الناحية النظرية مثقلة بأعباء فلسفات القرن التاسع عشر، كالنزعتين التاريخية والوضعية، وأنها تتعامل مع النصوص الأدبية بصورة خارجية، وفي منأى عن أدبيتها، ولا تتعامل مع الأبعاد الداخلية لتلك النصوص، أي مع جوهرها الفنّي والجمالي. وبهذه المناسبة ذكّر ويليك زملاءه الفرنسيين التقليديين بأنّ العمل الأدبي ((بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف، ولذا فهي مستقلة أيضاً عن المؤثرات التي قد تكون شكّلت ذهنه))[12] .

إنّ العمل الأدبي يفقد أدبيته بمجرد أن يجرد من تلك البنية، وهذا هو ما تفعله دراسات التأثير التي تقفز فوق جوهر الأعمال الأدبية، أي فوق أدبيتها وجماليتها، وتتعامل معها كمجموعة من المؤثرات والوسائط الخارجية، مما حوّل تلك الدراسات إلى عمليات مسك دفاتر ثقافية تبيّن ما صدّره أدب قومي إلى الآداب الأخرى وما استورده منها من مؤثّرات [13] .

إنّ الخلفية الحقيقة لذلك الصدام الذي جرى بين الاتجاه التاريخي (الفرنسي) في الأدب المقارن وبين "النقد الجديد" الذي مثّله رينيه ويليك، ترجع في حقيقة الأمر إلى ذلك التحول الجذري في الأنموذج الذي شهده النقد الأدبي والدراسات الأدبية في أوائل هذا القرن، ألا وهو التحول في مقاربة النصوص الأدبية من المقاربات الخارجية إلى المقاربات الداخلية. إنه التحول الذي بدأه "الشكلانيون الروس" وواصله "النقد الجديد" والبنيوية والاتجاهات ما بعد البنيوية، وهو تحوّل شكّل

منعطفاً حاداً في تاريخ الفكر النقدي في العالم [14] . فقد نقل مركز ثقل الدرس النقدي من العلاقات الخارجية للعمل الأدبي (أي علاقاته بشخصية الأديب وسيرته، وعلاقته بالبيئة الاجتماعية والثقافية..) إلى العلاقات الداخلية للعمل الأدبي، أي إلى بنيته الفنية والفكرية والجمالية. لقد جعل ذلك التحول في الأنموذج تاريخ الأدب في صورته القديمة أمراً غير ممكن. وكان النقد الجديد أحد التيارات النقدية الحديثة التي تبنّت ذلك الأنموذج الجديد وساهمت في صياغته. إنه أنموذج لايولي العلاقات الخارجية للأدب كبير اهتمام، ويولي جلّ اهتمامه لأدبية الأدب، أيّ لتلك الخصائص التي تجعل منه أدباً. فأهمية أيّ مقاربة للأعمال الأدبية تكمن في مدى قدرتها على جعلنا نفهم الجوهر الأدبي لتلك الأعمال، أي قيمتها وبنيتها الأدبية، بصورة أفضل. أمّا دراسات التأثير والتأثر فهي لا تقرّبنا من فهم جوهر النصوص الأدبية، بقدر ما تبعدنا عنه، وتدخلنا في متاهات المؤثرات والوسائط والعلاقات الخارجية. وبناء عليه رفض رينيه ويليك المنهج الفرنسي التقليدي في الأدب المقارن، ودعا إلى منهج يتعامل مع جوهر الأدب، أي إلى منهج نقدي في الأدب المقارن. إنه منهج بات يعرف (بالمدرسة الأمريكية) أو (المدرسة النقدية)، وهو منهج يدرس الظواهر الأدبية بصورة تتجاوز الحدود القومية لتلك الظواهر. فالظواهر الأدبية الرئيسة، من أجناس وتيارات أدبية، لم تكن في يوم من الأيام محصورة في أدب قومي واحد أو مقتصرة عليه، بل تتعداه إلى آداب قومية مختلفة، وكثيراً ما تكون عالمية. وعندما يدرسها المرء دراسة مقارنة فإنه لا يتصنّع شيئاً بل يدرسها في إطارها الطبيعي الصحيح.

إلا أنّ المدرسة الأمريكية لم تكتفِ بنقل اهتمام الأدب المقارن من العلاقات الخارجية إلى العلاقات الداخلية للأدب، بل تخطّت ذلك إلى المطالبة بأن تنفتح الدراسات المقارنة على نوع آخر من المقارنات، ألا وهو مقارنة الأدب بالفنون والعلوم وحقول المعرفة والوعي الإنساني الأخرى. فالفنون كالموسيقا والتصدير، هي ظاهرة جمالية تنطوي على أوجه تشابه كثيرة مع الأدب. ولذا فإنّ دراستها يمكن أن تقرّبنا من فهم الأعمال الأدبية، ويمكن أن تؤدي مقارنتها بالأدب إلى الكشف عن جوهره. أليس المثل الأعلى للوحدة الفنية في العمل الأدبي مستمداً من الوحدة الفنية في الموسيقا والتصوير؟[15] . ويمكن أن يقال عن علاقة الأدب بالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع

والعلوم الإنسانية الأخرى شيء مشابه. فهي علوم يمكن أن تقدّم مساعدة كبيرة في فهم الأعمال الأدبية[16] . وباختصار فإنّ جوهر الدراسة المقارنة للآداب من وجهة نظر "أمريكية"، يكمن في تقريبنا من فهم البنى الداخلية، أي الجمالية للأعمال الأدبية، لافي حصر ما تنطوي عليه تلك الأعمال من مؤثرات أجنبية، وما مارسته على الأعمال الأدبية الأجنبية من تأثير.

ترى ألا يؤدي ذلك إلى إذابة الأدب المقارن في النقد الأدبي وتمييع مضماره وتخومه كفرع من فروع الدراسة الأدبية، وإلى إفقاده خصوصيته كمنهج؟ إنّ رينيه ويليك لايخشى اعتراضاً كهذا. فالنقد الأدبي يجب أن يكون مقارناً، يتجاوز الحدود اللغوية والقومية للآداب، والأدب المقارن يجب أن يكون نقدياً يقارب النصوص الأدبية كبنى جمالية، لاكمؤثرات ووسائط. عندئذ يصبح الأدب المقارن نقداً، ويصبح النقد أدباً مقارناً، وتزول تلك الحواجز المصطنعة التي أقيمت بين الأدب المقارن والنقد الأدبيّ. فالأدب يتجاوز بطبيعة الحال حدود اللغات، ولذلك لا يجوز أن يدرس إلا بصورة مقارنة. وهو بنى وقيم جمالية، ولذلك لايجوز أن يقارب إلا بصورة نقدية. إنّ الأدب المقارن الحقّ هو في جوهره نقد أدبي، والنقد الأدبي الحقّ هو في جوهره أدب مقارن. وهكذا أعاد رينيه ويليك اللحمة إلى علاقة الأدب المقارن بالنقد الأدبي، ووصل ماقُطع بصورة تعسفية.

كان النقد الجذري الذي وجهه رينيه ويليك إلى دراسات التأثير والتأثر وإلى مايعرف بالمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن إيذاناً بولادة مدرسة مقارنة جديدة، باتت تعرف بالمدرسة "الأمريكية".

المبحث الثاني

المصطلحات المرتبطة بتسمية الأدب المقارن

أولاً: تاريخ الأدب:-

ويأخذ على عاتقه دراسة عمليات تطور الأدب العالمي أو الآداب القومية كُلاً على حدة كاشفاً عن خصائصها الذاتية وكذلك يهتم بدراسة الطريق الإبداعي لهذه المجموعة أو تلك من الشخصيات الأدبية ويحدد مكانة كلٍّ منها داخل العصر وهكذا فإن تأريخ الأدب يستند بصورة

خاصة إلى العصر وإلى عدد محدد من لحظاتهِ عندما يدرس أدباً قومياً بعينه نشأةً وتطوراً ومصيراً ويدرس مراحله في كلّ حقبة من الحقب ، وقد دفعت الفوضى التي سادت في القرن العشرين في تحديد المصطلح (المقارن) إلى تثبيت رؤية مفادها أن الأدب المقارن ((هو فرع من التاريخ الأدبي لأنّه دراسة للعلائق الروحية الدولية والصلات الواقعية...))[17] وهذه الفكرة تبناها الناقد الغربي (جان ماري كاري) عندما نظر إلى حقيقة العلاقات الواقعية بين نتاجات بوشكين وجوته.

ولو نظرنا إلى العلاقة بين الأدب المقارن وتأريخ الأدب سنجد أنّها مختلفة تماماً تبعاً لاختلاف المناهج المقارنية فالأدب المقارن في المفهوم الفرنسي هو تاريخ أدب مقارن وقيل أن لفظة تاريخ أسقطت عن المصطلح للاختصار وفي هذا الكلام إشارة إلى ما سعى إليه البحث المقارني الفرنسي خطوات تاريخية تحاول تتبع الظواهر في منابعها ومصادرها وتحرص على الصلة التاريخية وهي العلاقة الرابطة بين المؤثر والمتأثر التي يذكرها التاريخ وبإسقاط هذه الصلة لا نكون بإزاء عملية مقارنية بل بإزاء دراسة تأريخية صرفة.أما فيما يتعلق بالاتجاه الأمريكي وما تلاه من الاتجاهات الحديثة فنجد أن البحث المقارني قد اقترب من النقد بالمعنى الحديث له فصار نقداً مقارنياً وابتعد عن التاريخ لأنه تبعاً لهذه الاتجاهات لا يكشف عن بنى النصوص وجماليتها فالإفادة من التأريخ هنا هي غير مباشرة إذا ما افترضنا أن النص قد تأثر بالمؤثرات التاريخية عند إبداعه[18].

إن تاريخ الأدب يبحث في الأدب من ناحية عنصر الزمن وتأثيره في الأدب وفي الشعراء... فالأدب يدرس من خلال دراسة العصر وما طرأ فيه من ظروف وتأثيرها على الأدب فالأدب الإسلامي مثلاً يمثل ويحمل مشكلات الأدب الإسلامي وإرهاصاتهِ. والعلاقة بين الأدب المقارن وتاريخ الأدب هي علاقة منهجية أكثر منها اصطلاحية بينما علاقة الأدب المقارن بالأدب هي علاقة اصطلاحية ... أن الأدب في الاتجاه المقارن الفرنسي هو تاريخ الأدب[19].

إنّ الاتجاهات المقارنية الأمريكية لا تنفصل انفصالاً تاماً عن تاريخ الأدب لأنه المؤثرات التاريخية تصبُ في نص المبدع... فالتاريخ يؤثر في المبدعين ثم في نصوصهم، وبهذا فهي

علاقة غير مباشرة بين المقارني الأمريكي وتاريخ الأدب داخل مضمون النصوص بينما هي علاقة مباشرة مع المقارني الفرنسي.[20]

ثانياً: الأدب العام:

هو نوع من الأدب يهتمّ بدراسة الحركات الأدبية العالمية، والتيارات النقدية والفكرية والمذاهب الأدبية، والأجناس والأشكال والموضوعات التي تسود داخل الأدب القومي و((يعتبر الأدب العام كمدّ للأدب المقارن فالعلاقات القائمة بين هذين النوعين من الدراسات الأدبية وثيقة حتى أنّه يصعب اقامة حدود فاصلة بينهما ويستحيل غالباً الكلام عن الأدب العام دون اثارة موضوع الأدب المقارن))[21] ، وتزامن ظهور هذا المصطلح في فرنسا مع نشأة الدراسات المقارنة هناك، وكان الفرنسي (تكست) من أئمة الباحثين الذين وجهوا جهودهم في أواخر القرن التاسع عشر إلى دراسة الصلات القائمة بين مختلف الدراسات الأدبية ، وكان يؤمن((أنّ الشعوب كانت ومازالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع ، وهو أيضاً من الدعاة لأدب عام أوربي متجاوز الحدود الوطنية))[22]

وبهذا نفهم : إن الأدب العام والمقارن مفتوح على دراسة العلاقات بين الآداب والمجتمعات، والروابط بين الآداب والممارسات الفنية والثقافية، ومتوجه في أساسه نفسه، نحو العالم الخارجي (الأجنبي)، وأشكال الغيرية (من الغير). ومدقق للتحولات اللفظية والمجازية التي يأخذها البعد الأجنبي، وموجود بصورة عارضة وأكيدة فيما بين الطرفين من التأمل الثقافي، الأدبي والرمزي، ويستطيع أن يطالب بمكان أصيل بين العلوم الإنسانية[23]

ويستطيع الأدب العام والمقارن، من خلال جعل الرابطة، والعلاقة، والمقارنة، موضوع تأملاته، أن يخط طريقاً أصيلاً بين تجربتين: إذ يستطيع أن يقدم نظرية انطلاقاً من عمل أو عدد قليل من النصوص، ويكثر جداً من الأمثلة بحثاً عن منظور عام، تركيبي يعاد النظر فيه باستمرار[24].

وعوداً على بدء نقول: إنّ مصطلح (الأدب العام) بفضل جهود الفرنسيين ظهر كعلم يختلف بعض الشيء عن مصطلح (الأدب المقارن) انطلاقاً من أنّ المواضيع هي المادة الخام للأدب وإنّ

الفكر البشري قليل الإبداع والابتكار وهو لا يعيش إلاّ على رصيد ثابت من الموروثات. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد حصل الخلط بين المفهومين فقد أخذت جامعاتها تدرس روائع الآداب العالمية مع لمحة خاطفة عن الأدب العام وقد ماتت هذه الدراسات التي وصفتها الجامعات الأوربية بأنها سطحية وغير ناجحة ، ولكن العالم القديم احتفظ بالمصطلح لتحديد بعض الدراسات المقارنة الأكثر شمولاً واتساعاً من سواها.[25]

ثالثاً : الأدب القومي:

الأدب القومي((هو الأدب الخاص بجماعة بشرية تنضوي تحت راية هوية جمعية محددة ، من مثل القوم أو الشعب أو الأمة أو الإثنية ، ويُنتج عادة بلغة هذه الجماعة التي ترى فيها لغةً أمّاً تجتمع بين أفرادها وتوحدهم تحت رايتها باتخاذها أداة تفكير وتعبير وتواصل فيما بينهم.))[26]

وكان من الطبيعي في ظل التوجهات القومية في اللغة والادب والتاريخ في فرنسا، أن يتجه الأدب المقارن اتجاهاً قوميا تاريخياً، هدفه أن يكشف عن الاسهامات التي يقدمها أدب قومي في تطور أدب قومي آخر، لذا اشترطوا في دراسة التأثير أو التأثر أن تكون العلاقة بين الادبين القوميين مبنية على وقائع ووثائق تاريخية، تثبت انتقال الأدب المؤثر إلى الأدب المتأثر، مما أدى إلى التركيز على وسائط التأثير كالترجمة والرحلات والكتب، وتتبع سيرة الكاتب المؤثر، وسيرة الكاتب المتأثر، وكأن المهمة الأساسية للمقارنة في هذا الاتجاه، تنتهي عند إثبات التأثير بين أدبين قوميين[27].

وما يقوي فرضية ارتباط الأدب المقارن الفرنسي بالنزعة التاريخية القومية، أنه نشأ في البداية فرعاً من فروع تاريخ الأدب، فقد وجد المؤرخ الأدبي الفرنسي أثناء متابعته لتطور الأدب الفرنسي، أن هنالك جوانب تخرج عن نطاق اهتمامه أو دائرة عمله، تتمثل في خروج الأدب القومي إلى آداب أخرى مؤثراً أو متأثراً وحتى يتم إكمال كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، لابد من تتبع هذه التأثيرات.[28]

فقد ظهر الأدب المقارن عند فليمان تلبية لهذه الرغبة، عندما كان يلقي محاضرات في جامعة السربون عن تاريخ الأدب الفرنسي (1828- 1829) حيث تناول في هذه المحاضرات التأثيرات

المتبادلة بين الأدب الفرنسي، والأدب الإنجليزي، وتأثير الأدب الفرنسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر، هدفه من وراء ذلك تقديم صورة عن ((ما تلقته الروح الفرنسية من الآداب الأجنبية وما أعطته لها من أجل كتابة تاريخ أدب شامل لفرنسا))[29]

وظل هذا الهدف القومي التاريخي متحكماً في سير الدراسات المقارنة بعد فليمان، ويتضح ذلك من خلال تركيز المقارنين على التأثير الثنائي المتبادل بين أدبين قوميين، يكون عادة الأدب الفرنسي أحد طرفي هذه المقارنات؛ فما دام الهدف هو إثبات الهوية القومية بإكمال كتابة تاريخ الأدب القومي، فإن المؤرخ عادة يتمركز حول أدب قومية واحدة، ولا يستطيع القيام بكتابة تاريخ عدة آداب في آن واحد، وهذا أيضاً ما دفعهم إلى عدم الاعتراف بالدراسات المقارنة التي تتسع لتشمل عدة آداب في وقت واحد، وكذلك الدراسات التي تتناول التشابه بين الآداب القومية، حيث يتم تصنيفها تحت ما يسمى بالأدب العام ، فدراسة الرومانسية في الأدب الأوروبي لا تدخل عندهم في الأدب المقارن، وكذلك دراسة تأثير شكسبير في الأدب الأوربي بشكل عام، لأن هذا النوع من الدراسات ـ كما يبدو ـ لا يتفق مع توجههم القومي الذي يهدف إلى كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، فدراسة التأثير المبني على حقائق ووقائع تاريخية تثبت دور كاتب أو أمة في مسيرة أدب قومي هي المعول عليها، أما دراسة التشابه المبني على توارد الخواطر أو على الصدفة ، وكذلك دراسة تأثر عدة آداب قومية جملة واحدة بأديب أو باتجاه أدبي ، فلأنها لا تخدم أو توثق أو تكمل كتابة تاريخ الأدب لقومية محددة ؛ فقد أخرجها أصحاب هذا الاتجاه من دائرة الأدب المقارن .[30] وأدى هذا التوجه الرافض للتمحور حول التاريخ الاجتماعي أو القومي في تناول الأدب، إلى ثورة عدد من النقاد الأمريكيين ومن بينهم رينيه ويليك وجماعة النقد الجديد على المعايير الأكاديمية التي تهتم بالعوامل التاريخية أكثر من اهتمامها بالنص الأدبي وجمالياته ، ووجدوا في أفكار الشكلانيين الروس الرافضين للتاريخية الاشتراكية أو الماركسية مايلبي توجههم الأدبي ،وهذا ما يؤكده رينيه ويليك في قوله : ((عندما عدت إلى براغ عام 1930م انضممت لفترة من الزمن إلى حلقة براغ اللغوية، فأطلعت على أفكار الشكليين الروس، وكان رومان ياكبسن موجوداً في براغ آنئذٍ، وكان ناقداً لاذعاً للمنهجية المترهلة التي يتبعها التاريخ الأدبي الأكاديمي))[31].

المبحث الثالث:

المصطلحات الرئيسة في الأدب المقارن

أولاً: التأثر والتأثير:

((ظاهرة انسانية تتناول علاقة الفرد بالأخر وعلاقته بالمجتمع ومن ثم بالأمم الأخرى، فهي من الظواهر التي رافقت وجود الحضارات الإنسانية ،ذلك أنّ كل حضارة لابد من أن تكون قد أثّرت بما سبقها وأثرت فيما بعد بالحضارة التي جاءت بعدها ، فمسيرة الحضارات عبر التأريخ سلسلة من حلقات التأثير والتأثر))[32]

وعندما جاء العصر الحديث أصبح مصطلح (التأثر والتأثير) من المفاهيم الرئيسة في دراسة الأدب المقارن، إذ يشترط المقارنون وجود تأثير وتأثر((يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر، وأيًّا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر، وسواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب، ثم ما يمتُّ إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب))[33].

ويشمل التأثير والتأثر كثيرًا من الموضوعات الأدبية: فقد يتعلق بأديب من الأدباء، وقد يتعلق بموضوع أدبي، وقد يتعلق بأسلوب لغوي، وقد يتعلق بشكل فني، وقد يتعلق باتجاه فكري، وقد يتعلق بجنس من الأجناس الأدبية، وقد يتعلق بقواعد تخص هذا الجنس أو ذاك، وقد يتعلق بالصور الفنية، وقد يتعلق بنموذج أو شخصية أدبية...إلخ، ويتناول الباحثون في الأدب المقارن هذا الموضوع الأدبي أو ذاك فيتابعون انتقاله من أدب إلى آخرَ محاولين معرفة الطريق التي سلكها في رحلة الانتقال، والعوامل المسؤولة عن ذلك الانتقال، ومسجلين ما يطرأ عليه من

تحويرات أو تعديلات أثناء تلك الرحلة، غير أن هذا المفهوم أحدث خلافاً واسعاً بين المقارنيين أنفسهم ؛ لأن الأمريكيين لم يتقبلوا هذا المفهوم وجعلوا له رديفاً أطلقوا عليه (التوازي)[34] وهو واحد من مصطلحات المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن، وهو رديف للتشابه أو القرابة في موضوعات الأدب المقارن، وجاء رفضًا من المدرسة الأمريكيّة لمصطلح التأثّر والتأثير الذي استخدمته المدرسة الفرنسية، ويُعنى هذا المصطلح بالكشف عن أوجه التشابه في موضوعات الأدب المقارن في البيئة أو المزاج أو الفكرة أو الأسلوب، في أعمال لا يربط بينها أي صلات تاريخية أو علاقات تأثر وتأثير أكيدة، كما يعرف بأنه الأدب الذي يدرس النصوص الأدبية المتشابهة دون أن تكون بينها أية علاقات فعلية سالبة أم موجبة، والتوازي مهم في توسيع آفاق الأدب المقارن، بعيدًا عن متاهات الفولكلور والتاريخ.[35]

ثانياً: الأجناس الأدبية:

ونقصد بها القوالب الفنية العامة التي حددتها نظرية الأدب تبعاً لتراكم النصوص الأدبية المختلفة عبر التاريخ ومن هنا فقد انقسم الشعر مثلاً: أجناساً مختلفة منها الشعر الملحمي والشعر التمثيلي والتعليمي....[36]

وكذلك الأمر مع النشر بفنونه المتباينة كالقصة والمسرحية والمقامة والرواية وغيرها... ومن الطبيعي أن نقول أن الخوض في الأجناس الأدبية يختلف تبعاً لاختلاف المناهج المقارنية وتكون دراستها تاريخية في الاتجاه الفرنسي بينما تكون دراستها نصية في الاتجاه الأمريكي؛ لأنّ((موضوع الأجناس الأدبية يُثير مسائل رئيسة بالنسبة لتاريخ الأدب والنقد الأدبي والترابط بينهما فإنّه يضع في اطار أدبي محدد الأسئلة الفلسفية التي تتناول العلاقة بين النوع والوحدات التي تكونه))[37]

إن بعض الأجناس الأدبية ليست ذات أصول قديمة بل هي حديثة المنشأ ومن ذلك الرواية التاريخية التي يعتبر (سكوت) مبتكراً لها في بداية القرن التاسع عشر على الرغم من وجود من سبقه إليها الأدبين الفرنسي والانكليزي ولكن ليس بنفس الوضوح ومن الأجناس الحديثة أيضاً:

قصص الرعاة والفروسية ، وقصص الخيال العلمي والترجمة الذاتية والمذكرات، وقد يبتدع فرد واحد جنساً أدبياً أو أن يكون الجنس من ابتكار مجموعة من المؤلفين ، أو قد يكون متعدد الأصول مثل (القصص الحيواني)[38].

إن وظيفة الأدب المقارن في ميدان الأجناس الأدبية هي البحث في الثوابت والمتحولات الطارئة على الجنس الأدبي بسبب انتقاله من أُمةٍ لأخرى وقد يعنى جنس أدبي في بلد ويبعث في آخر كما وقع للشعر الرومانسي في أوربا والعالم العربي وكذلك المسحرية الشكسبيرية التي ضعفت أو فترت في موطنها الأصلي، ثم انبعثت في ألمانيا وفي فرنسا، وبطبيعة الحال أن بدأ الدرس المقارني للأجناس الأدبية يختلف تبعاً لاختلاف المناهج المقارنية التي تدرس هذا الجنس أو ذاك، وبقي أن نقول ومن الأمور التي بحثت في إطار الأجناس الأدبية هي مسألة تشابه الظروف الاجتماعية أو الفكرية التي لا تفترض أحياناً تشابه الأجناس الأدبية ولكنها غالباً ما تؤدي (الظروف المتشابه) إلى بروز أو ظهور أجناس أدبية متشابهة أو متماثلة وهذا ما نبه إليه المقارني (أتينابيل) حيث رأى أن مثال هذا الجنس هو الرواية الأوربية المعاصرة والرواية الصينية حيث ظهرتا نتيجةً لتشابه الظروف على الغرم من انعدام تأثير الأولى في الثانية[39].

ومن هذا نفهم إن الاتجاه الفرنسي يبحث عن الأسس المشتركة بين الجنسين الأدبيين المتماثلين أما الاتجاه الأمريكي فلم يتقيد بتحديد الجنس في الدراسة المقارنة . ومن هنا فيمكن الانطلاق من أي جنس أدبي [قصة أو ملحمة أو رواية أو شعر] على سبيل المثال ثم الخوض في اختلاف التشكيل البنائي لهذه الأجناس في النصوص المنتمية لثقافات متباينة بصرف النظر عن مسألة التحقق من الصلة التأريخية أو صرف الجهد في إبراز القنوات أو الوسائط الناقلة.

ثالثاً: التأويل:

هو ذلك التأثر الذي اصطبغ به أدب كاتبٍ ما في لغته التي يكتب بها بعد أن استفاد من أدب آخر.. وقد يكون هذا التأويل قريباً أو بعيداً عن الحقيقة[40]. فهو((يمنح المتلقي المقدرة على

إضاءة المعهود والكشف عنه وفق جسر يربط الماضي بالحاضر على ضوء ما يقتضيه الراهن للتعبير عن تجليات الحياة الاستشرافية))[41]

إن التأويل بصورة أدق هو إخراج علاقة التأثر والتأثير من الإطار السلبي إلى الإطار الإيجابي.. وهذا التأويل يعرف بكونه نوع التأثر الذي اصطبغ به الكتاب بعد إفادته من كاتب آخر ، ونعني به أيضاً مقدار الإضافة أو التحوير أو التكييف الذي أسبغه الأدب المتأثر على المؤثر[42].

ومثال على ذلك ... تأثر صوفية الفرس – من المسلمين بالقرآن الكريم والدين الإسلامي ولكن بعد تأويلهما بإدخال مفاهيم فلسفة (أفلاطون) و (أفلوطين) وبعض مبادئ التصوف في الهند وإيران القديمة... ثم فهموا آيات القرآن والحديث النبوي.. على هذه الطريقة ومع ذلك فهم متأثرون بالقرآن والحديث عن طريق التأويل.

من هنا نشير إلى((أن إدراك الإنسان لذاته وللعالم الخارجي ، هو إدراك تبرمجه الثقافة انطلاقا من تسنينات دالة سواء كانت لفظية أو غير لفظية وهي تسنينات قادرة على تشييد عمل الإنسان وممارساته الاجتماعية ، انطلاقا من إنتاجه وتداوله واستهلاكه لكمّ هائل من الأنساق الثقافية والرمزية (لغة ، دين أسطورة ، فن ، ...) وكل نسق من هذه الأنساق أو الأشكال ليس نسقا تواصليا فحسب بل هو نسق تأويلي منمذِج للعالم . هكذا يصير كل نسق ثقافي نسقا تأويليا بما أن الظاهرة الثقافية قد أضحت المضمون الممكن لأيّ نشاط أو فعّالية تأويلية . مما يعني أن قوانين التأويل هي في العمق والأصل قوانين ثقافية))[43].

والمحصلة النهائية فالتأويل لا يؤمن بأحادية المعنى للنص؛ بل يحاول أنْ يكشفَ عن البنية العميقة الكامنة في أعماق النص، فهو يعتمد بشكل أساس على تعددية المعنى[44] فالقراءة الفاحصة للنصوص لا تهدف إلى استجلاء العوالم الظاهرة للعلامة، بل تحاول أنْ تستقريء هذه العلامة من خلال النظرة التأويلية التي تتأسس على أنْ النص في مجمله علامة أو مجموعة من العلامات

التي تتعانق وتتشابك مع بعضها لتبرز الرؤية القارة في أعماق النص ، ومن ثمَّ فالتأويل يسقط فرضيات تنطلق من معطيات النص تطمئن إليها الذات المتلقية[45]

وفي الختام نقول: إن كلتا المدرستين تعتمد على مبدأ التأويل في مسألة تحديد الوسط المؤثر والمتأثر بيدَ أن المدرسة الفرنسية توغل في التعويل عليه اعتماداً على البعد التأريخية والعلاقة بين النصوص على خلاف المدرسة الأمريكية التي تعتمد على التقارب المضموني المباشر.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث المتواضع نذكر أهم النتائج التي توصلنا اليها:

1- مصطلح الأدب المقارن أخذ تسميات متعددة وأختلف الدارسون حول تسميته واختلفوا فيما بينهم تبعاً لتوجهاتهم الفكرية حتى انقسموا على مدارس مختلفة أهمها: الأمريكية والفرنسية والروسية .

2- مفهوم الأدب المقارن كان موجوداً في الدراسات العربية القديمة لكن بتسميات مختلفة كالموازنة بين الشعراء وغيرها.

3- من مقومات المدرسة الأمريكية التي اتضحت في البحث: عدم التمييز الدقيق بين مناهج ومفاهيم الأدب المقارن والأدب العام رغم الاختلاف الجوهري وكذلك عدم الاهتمام الكبير بالحدود القومية والسياسية أثناء عملية المقارنة بين الآداب.

4- أما المدرسة الفرنسية كانت تميل إلى الخضوع للنزعة التاريخية، والولع بتفسير الظواهر الأدبية على أساس من حقائق الواقع وعدم التناسق بين المنطق القومي، والهدف العالمي.

5- مفهوم الأدب المقارن في المدرسة الأمريكية يميل إلى التوسع في ميدان الدراسات الأدبية ولم يقتصر على اطار ضيق مقارنة بالمدرسة الفرنسية .

هوامش البحث

[1] ينظر: الأدب المقارن والأدب العام، ريمون طحان:8- 11.

[2] الأدب المقارن مشكلات وآفاق، عبدة عبود: 23، كذلك ينظر: الأدب المقارن من منظور الأدب العربي، د. عبد الحميد ابراهيم :9- 10

[3] ، الأدب المقارن نشأته وقضاياه واتجاهاته، الحكاية الخرافية أنموذجا ، أحمد زلط : 48.

[4] .المصدر نفسه

[5] الأدب المقارن ـ محمد غنيمي هلال : 20

[6].ينظر: المصدر نفسه:21– 27.

[7] ينظر: مبادئ علم الأدب المقارن ـ الكسندر ديما ، ترجمة محمد يونس :32.

[8] ينظر: نظرية الأدب ، اوستن وارين و رينيه ويليك ، ترجمة محيي الدين صبحي :63.62.

[9] ينظر: المصدر نفسه: 62– 65

[10] ينظر :المصدر نفسه 66– 70

[11] ينظر: مفاهيم نقدية: رينيه ويليك: 362– 375.

[12] المصدر نفسه والصفحات نفسها

[13] المصدر نفسه والصفحات نفسها

[14] ينظر: النظرية الأدبية الحديثة:10.

[15]: نظرية الشعر ، محمد كامل الخطيب :287

[16] نظرية الأدب ، رينيه ويليك وأوستن وارن. ترجمة محي الدين :82.

[17] مدارس الأدب المقارن ، سعيد علوش:63.

[18] ينظر : المصدر نفسه: 64– 67

[19] ينظر المصدر نفسه والصفحات نفسها

[20] ينظر: المصدر نفسه والصفحات نفسها

[21] الأدب المقارن والأدب العام ، ريمون الطحان: 91.

[22] المصدر نفسه :96.

[23] ينظر: الأدب العام والمقارن، دانييل– هنري باجو ، ترجمة : غسان السيد :17– 22.

[24] المصدر نفسه.

[25] الأدب المقارن والأدب العام ، ريمون الطحان: 94.

[26] مفهوم الأدب القومي ،د. عبد النبي اصطيف ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 34،ع1، 2018: 11.

[27] ينظر: المصدر نفسه: 13– 15

[28] ينظر : المصدر نفسه13– 15

[29] مفاهيم نقدية ، رينيه ويلك ، ترجمة محمد عصفور ، عالم العرفة ، العد 11، الكويت1987: 216.

[30] ينظر : المصدر نفسه:217–218.

[31] المصدر نفسه :346.

[32] التأثر والتأثير في النص النقدي العربي إلى أواخر القرن السابع الهجري ،أنوار سعيد(أطروحة دكتوراه) ،بإشراف: د.أحمد مطلوب، جامعة بغداد ،كلية الآداب، 2006: 4.

[33] مفهوم التأثير في الأدب المقارن ، سمير سرحان، مجلة فصول النقد الأدبي، ج1،م3 ،ع3، 1983: 26 ، كذلك ينظر: النقد التطبيقي المقارن ، محمد غنيمي هلال:21– 25.

[34] ينظر: التأثر والتأثير في النص النقدي العربي إلى أواخر القرن السابع الهجري ،أنوار سعيد(أطروحة دكتوراه) : 4.

[35] المصدر نفسه :4– 7.

[36] ينظر: نظرية الأدب ، رينيه ويلك ، ترجمة: عادل سلامة :315- 318.

[37] المصدر نفسه:329.

[38] ينظر: الأدب المقارن، غويار، ترجمة :هنري زغيب: 49- 53.

[39] ينظر: الأدب العام المقارن ،دانييل – هنري باجو، ترجمة :غسان السيد: 174.

[40] ينظر: نظرية التأويل ، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي:107.

[41]: مشكلة التأويل ، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي نصر حامد أبو زيد 360.

[42] ينظر: نظرية التأويل ، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي:107-110.

[43]بحث في سيميائيات شارل ساندرس بورس(التأويلية الانتاج والتلقي)، د. عبد الله بريمي: 28.

[44] آليات التأويل السيميائي، موسى ربابعة: 21.

[45] .ينظر : المصدر نفسه: 21-25

المصادر والمراجع

- الأدب المقارن : مشكلات وآفاق : دراسة/ عبده عبود، اتحاد الكتاب العرب- دمشق ، 1999م.
- مشكلة التأويل ، نصر حامد أبو زيد ، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي ، دار الوحدة ، 1983.
- الأدب المقارن نشأته وقضاياه واتجاهاته، الحكاية الخرافية أنموذجا ، أحمد زلط ، هبة النيل العربية- الجيزة، د ط 2005.
- مبادئ علم الأدب المقارن ـ الكسندر ديما ، ترجمة محمد يونس ، دار الشوؤن الثقافية ، بغداد ،1987.
- بحث في سيميائيات شارل ساندرس بورس(التأويلية الانتاج والتلقي)، د. عبد الله بريمي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016م.
- نظرية الأدب ، اوستن وارين و رينيه ويليك ، ترجمة محيي الدين صبحي ،المجلس الأعلى لرعاية الفنونوالآداب والعلوم ، 1972.
- نظرية الشعر ، محمد كامل الخطيب - كتب مدرسة الديوان. دمشق، وزارة الثقافة، 1996.
- نظرية التأويل(الخطاب وفائض المعنى)، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ، ط2، 2006م.
- مدارس الأدب المقارن، سعيد علوش ، المركز الثقافي العربي ،ط1، 1987.
- الأدب العام والمقارن، دانييل- هنري باجو ، ترجمة : غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب،د.ت.

- الأدب المقارن والأدب العام، ريمون طحّان ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان ، ط1، 1972.
- آليات التأويل السيميائي، موسى ربابعة، مكتبة آفاق، الكويت، ط1، 2007م.
- الأدب المقارن من منظور الأدب العربي، د. عبد الحميد ابراهيم ، دار الشروق القاهرة ط1، 1977.
- في النقد التطبيقي المقارن ، محمد غنيمي هلال ، مطبوعات نهضة مصر للتوزيع والنشر ، القاهرة ،د.ت
- الأدب المقارن ، غويار، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت ، ط2، 1988.